# الضباب

رواية مسلسلة
بقلم
ثروت اباظة

- ٨ -

اشرقت الفرحة على بيت زين العابدين اشراقة لم يكن البيت يتوقعها ، بل كان سيد البيت ابعد الناس عن التفكير في أن امله هذا قد يوافيه التحقيق . ومن اين وقد مرت برواحه السنوات الطوال ومحاولات زوجته لاتقف على طول هذه السنوات ، وما كانت اطاعته لها في الذهاب الى الطبيب الا اذعانا يائسا مما كان يحب ان يتعلق املها بشيء ويقصيها عنه . ومن حيث لا يحتسب اشرق الامل وتحقق والحمد لله . نعم امنة - وماغص من فرحته ان الوليد بنت

وليست ولدا . اما احس الفرحة كاملة لاينقص منها شيء . حين حمل الفتاه واحس خفق قلبها بين يديه وسمع صراخها العريض احس ان الله قد وهب له حياة ثانية يمسكها بين يديه . بل انه احس انه يمسك الحياة كل الحياة بين يديه ، وحين سرى هذا المعنى في كيانه وأحس به في اعماقه يتملكه جميعا احس دموعا عجيبة تطفر الى عينيه كانها فيض فرحة لم يقو جسمه الصغير على ضخامته ان يتسع لها واقسم بينه وبين نفسه ان يهيىء لهذه الفتاه من بعدها حبرا ، واقسم بينه وبين نفسه ان يكبح جماح شهواته حتى يبقى من المال مايزيد الحساجة عن هذه الطفلة الصغيرة التي ماتزال تسعى في الهواء على اربع نحو مستقبل جديد وكالعابد قد أتم طقوسه ، أعاد زين العابدين الوليدة الى امها ثم قبل الأم وقبل الوليدة وخرج من الحجرة ثم خرج من البيت ونظر حواليه ، ونظر الى السماء ودارت عيناه ودارتا فوجد الطيور على أعراف الشجر مستقرة الجلسة مطمئنة هادئة شأنها دائما كلما اتخذت من أعراف أشجاره مكانا لها . وفي هذه المرة لم يعجب للطيور مقيمة على اشجاره على رغم الاجنحة التي تتمتع بها ، بل عجب من نفسه كيف كان يريدها ان تظل سابحة في السماء لاتراح الى عش مطمئنة ولا تستقر الى بيت آمن كأشجاره هذه . وانعم زين العابدين النظر فيما تخفيه اعراف الشجر عن العيون، وأنعم حتى اذا رأى عشين محتميين بالأوراق انشرح صدره واحس بالسرور والفرح والاطمئنان تشيع في نفسه جميعا

اما فرحة بهية هانم بابنتها فقد كانت توشك أن تصبح حزنا يحتاج الى من يكبح جماحه ، وهي معذورة ، فلم يكن الجاب هذه البنية مجرد انها اصبحت اما وما هذا في دنيا عقيل ، انما هي بهذه البنية الصغيرة ترد كيد الكائدات من اهل زوجها اللواتي كن يدعين انها عاقر لن ترى لنفسها اطفالا أبد الدهر وكن يسرفن في الكيد فيخبرن زوجها ان يتخذ لنفسه زوجة اخرى ، وان انجابها أيضا اعاد لها من هذا الفراغ الذي كانت تعانيه في ايامها الطوال بالقرية ، لقد اصبحت اما ، اصبحت تؤدي الوظيفة الكبرى في الحياة ، انها تشارك الحياة في تكوين الناس ، انها .. هي نفسها اصبحت حياة وتمد بالحياة روحا اخرى ، روحا تحيا وتنبض ولهذا قلب يخفق وعقل سيفكر ويدان ورجلان ، انها ام .. أم .. قد لاتعني هذه الكلمة شيئا لسيدات كثيرات . اما لها هي .. هي التي سمعت الى هذه الامومة بكل دقة من دقات قلبها على مدى السنوات الطوال التي تزوجت فيها ، وهي التي لم تترك سبيلا الى هذه الامومة الا سلكته

امالها .. لها هي فكلمة أم القصيرة الخاسية هذه تعني لها كل شيء ، لم تعد تريد من الحياة شيئا آخر .. لا .. لاتريد ولدا ، لا تريد الا ان يطيل الله عمر ابنتها هذه ، فانها هي التي منحتها هذا اللقب ، وقد كانت تقول ، ياطالما قالت انها على استعداد ان تتنازل عن احدى عينيها لتنال هذا اللقب ، وقد كانت جادة فيما تقول ولا احد يدري ان كان منح الحد فيما تقول ان احدا لن يطلب منها عينا ليعطيها وليدا أم لا ، ولكنها كانت جادة على اية حال ، فكيف بها وقد حاملها الوليد دون ان تتنازل عن عينها . لا ، انها لاتريد من هذه الحياة الا ان تبقى عليها لقيها دامه دون زيادة وفي عمرة فرحتها امرت ان يشترى

حروف وثلاثة من الديكة الروميـــه ، وخمســة أرواح من الفــراخ وعشرة أرواح من الحمــام وان ترســل حميعهــا الى الدكتــور لحبيب محفوظ بالقاهرة . ولا يعنيها ما يصنعه الدكتور بهذه الهدية ولا كيف سيحافظ عليهـا انما كل مايعنيها ان ترسل اليه هـذا الشكر من الاعماق . وقد ظلت تقول في نفسها ، لو استطعت ان ارسل له الدنيا جميعا لارسلتها وظللت مقصرة » .

- ٩ -

اتم حسن تعليمه في الكتاب وختم القرآن حفظا ، وقد كان يحب ان يترنم بما حفظ ، وكان يحلو للحــاج والى ان يطلب اليه من حين الى آخر ان يرتل بعض اجزاء القرآن فكان الفتى يسـارع الى الطاعة سعيدا غاية السـعادة انه يستطيع ان يلبي طلبا لهـذا الرجل . وكان في قراءته خاشعا تدمع عيناه معا في صمت وروحانية . كانت هـذه الجلسات التي يجلس فيها حسين مرتلا القرآن في غير تجويد امام الحاج والى هي احمل لحظات حيـاته ، كان يحس انه يستطيع ان يكون مفيدا ، وانه يستطيع ان يمتع هذا الرجل الذي يحوله في غير ضيق به بل انه يوسـع امامه افاق المسـتقبل في اقـالة اب وفرحة كريم وكانت السن قد تقـدمت بحسـين فاصبح يعرف تمام المعرفة موقفـه من الحاج والى واصبح يشكر هـذا الموقف في نفسه اعمق الشكر واصدقه فهـو دائما حائر بهذا الشكر .

ماذا يبدي ان افعل لأرد فضـل هذا الرجل ، وماذا يبدي ان افعل لأرد فضل الحاجة ، ماذا فعلت لاتال هـذا الحنان منهما . سيد ابو عبد الكريم يعيش مع امه وابيه فهمـا يضربانه في كل يوم ليترك الكتاب ويذهب الى الغيط ، الى اى مصير كنت الفى لو انني عشت مع جدي وجدتي ، فلاح يصبح بالطعام لجده ويمسي بالماشية يعـود بهـا الى البيت .

وانظر الى نفسي الآن ، فتى يحيط به الاحترام ان مشى ، فهو لايمشي فردا انما يحمل كلام الله ولكن أأحمـل كلام الله ولا افهم معناه ، الا افهم معناه انا . هيه . أأحادع نفسي ايضا لاخلص من فورى الى الحاج سالم فخر الدين فأجد عليـه التفسير فقد درسه في الازهر الشريف وليس في البلد من يفقهني فيه مثلمـا يستطيع هو ان يفعل . ولكني أتطول بي هذه الدراسة ومالي لا اذهب مباشرة الى الازهر الشريف . لقد ختمت القرآن ، وحسب الحاج والى ما انفقه على من طعام وملبس ومأوى حتى ختمت القـرآن . اتراني اريد الذهاب الى الازهر لاخفف المؤونة عن كاهل الرجل الطيب ام اني ازين لنفسي اني عفيف وانا اتحرق شوقا للذهاب الى الازهر لألبس العمامة والجبة والقفطـان . واروح في البلد واغدو فلا والله الشيخ سالم يسـالم ما ابلغه من الفخامة والمهابة . والبت هيبة معي ، لتأتي صاغرة تقبل يدي وطرف أم عبد الحميد التي لم ترض ان تلعب حتى . فأي مكانة في العالم ارفع من مكانتي ، لتكون الجنـة تحت قدمي ، فاقع لونها يسر الناظرين ، وليكون القفطان ريتونيـا .. ايشتري لي الحاج والى ما اطلب .. ايفضل اولا ان اذهب الى الازهر .. سـأذهب قال حسين للحاج والى لن يحملني اغير مسـتقبل كله من اجله . انني على اتم استعداد ان اقدم له حياتي ، اما مستقبلي فهو لي وحدي مادام لايريد حياتي . مادمت سـأعيش فأنا

الذى سأصنع مستقبلي بيدى ولن يصنعه لى أحد . اراه منذ اليوم يتكلم على انى سأصير محاميا وعلى محمد انه سيصير طبيبا ومحمد لايزال فى الخامسة يتلقى اول دروس الكتاب ولكن الحاج يرسم المستقبل لكليهما .. لن يكون هذا . لا .. لن يكون . الا يقولون ان الثـــورة قد نشبت فى مصر من اجـــل الحرية .. ما الحرية ان لم تكن حريتى فى اختيـار طريق حياتى . وطريق حيـــاتى هو الازهر فانى احب ان اسير لابسا الجبـة والقفطان . الجبـــة الخضراء والقفطان الزيتونى اللون ويقبـــل الرجال .. والنساء .. نعم وخاصة النســـاء وعلى راسهن هنية يدى وأرى نفسى عظيما فى القرية يحيط بى التوقير والاحترام من كل جانب .. بل انى ارى المســـابيح فى البيدر ايضا يحيط بهم .

وصحا حسين من خواطره واحـلامه على صدمة عنيفة من حمار يحمل حملا عاليا من البرسيم ويسير خلفـه طفل صغير لا يســـتطيع ان يرى الطريق فالطفل قصير وحمـل البرسيم مرتفع شاهق فى الهواء . واعتاظ حسين وهو يرى نفسه مهـــدوما من حمـــار ولم يستطع ان يكتم غيظه فما أسرع مادار حول الحمار وامسك بالطفل .

ـ ولد .. أانت الحمار أم هو .

ـ دعنى .. اترك ملابسى .

ـ اتترك الحمار يقودك يا ابن الحمار

ـ لا شأن لك بى .

ـ كيف ؟ أترك حمارك يصدم خلق الله وتقول لا شـــأن لك بى .. طيب والله لاذهب بك الى ابيك ابن من انت ؟

ـ دعنى .. اترك ملابسى .. لاشأن لك بى .

وتجمع حول حسين والطفل نفر من القرية وراحوا يمحون على حسين باللوم حينا او قد ينحو بعض منهم باللوم على الطفل . وفجاة تقدم الى ميدان المعركة رجل طويل القـــامة عريض المـــنكبين وأمسك بتلابيب حسين .

ـ ماذا يا ابن شحاته .. الم تجد الا ابنى لتهينه ؟

ـ لقد ترك الحمار يصدمنى .

ـ ومالـه يا اخى .. اما عجبيه .. الم يبق الا انت يامن تعيش عاله حتى تتعدى على طفل صغير .

والجمت الكلمة حسين فاطال النظر الى الرجل ولم يستطع ان يمنع عينه الاخرى ان ترسل دمعة . ثم الفى برأســـه الى الارض وأولى الجمع ظهره ومشى .

وصمت الرجل العرض المـــكين كفاتل ادرك بشاعة جريمتـــه بعد ان ارتكبها ، ونظر حواليه فرأى فى عيون الناس جريمته مجسمة فى نظرات المه فما استطاع مكانا ، وهف خطـاه وراء حسين .

ـ يا حسين .. يا حسين .

ولم يقف حســـين ، فعاد الرجل ينادى .

ـ يا شيخ حسين .

واحس حسين حلاوة كلمة « شيخ » فتلكأ هونا وادركه الرجل .

ـ ارعلت منى ؟

وصمت حسين .

ـ حقك على .. هات راسك لابوسها

ولم يدر حسين من امر نفسه الا ان دمعاته الصامتة اصبحت نشيجا عاليا وواصل الرجل كلامه

ـ ان الله غفور رحيم ياشيخ حسين .. يارجل انت حامل كلام الله فاعمر لى .

وردت كتفه ثم احتواه فى حضـــنه

الواسع وتجمع الناس الذين شهدوا موقفهما الاول وراحوا يحاملون حسين ويرجونه الا يحمل على الرجل غلظة لسانه ، وتهافت الشيخ من حسين واقترب من الصبية وقال للرجل المريض المسكين :

ـ لا تذكر ماقلته للحاج والى فانه لو عرف ما قلت لم يعفني من السجن والتأنيب .. اصفح عني ياشيخ حسين واقسم بالله لا أعود لها أبدا .

ثم نادى بأعلى صوته على الطفل الذى كان يسير خلف الحمار فجاء فقال له

ـ قبل يد الشيخ حسين ياولد واعتذر له .

وقال الطفل :

ـ يا أبا انا لم اره .

وزجره ابوه في عنف :

ـ قبل يده قلت لك .

وتكلم حسين أخيرا مقتضبا :

ـ استغفر الله .. لا لزوم لهذا .

وقال الرجل :

ـ اجعله يقبل يدك لينال بركتك.. انت حامل كتاب الله وسيدك .. اجعله يقبل يدك من اجل خاطرى .. اعطه يدك حتى اعرف انك صفحت عني .

وامسك الطفل يد حسين فقبلها في سرعة قبل ان يتنبه حسين ، وأحس حسين رضى في نفسه وقال :

ـ استغفر الله العظيم ، يا سيدى انا متشكر على كل حال .. سلام عليكم ورد الجميع السلام في همهمات وانصرف حسين وقد اصبحت رغبته في ان يصبح شيخا اعمق في نفسه وابعد غورا .

لم يذهب حسين الى الحاج والى وانما قصد الى الحاج سالم فخر الدين ، وهو رجل قطع من مراحل التعليم في الازهر شوطا ليس بالبعيد وانما كان ما تعلمه كافيا لان يجعل منه معلم القرية ، فانه يقصد الناس ليفسر لهم ماغمض عليهم من شؤون دنياهم ودينهم ، وقد كانت الدنيا عندهم تختلط بالدين في اغلب الامور ، وقد كان الحاج سالم ذكيا يفصل في الامور بحدة ذكائه اكثر مما يفصل فيها بعلمه ، وكان جميل السمت دولجية مهيبة وصاح الحين تتوسط جبهته تلك العلامة السمراء التي تختلف سمرتها بين الدكنة والحفة حسب كثرة صلاة صاحبها او قلة صلاته .. تلك العلامة التي تأخذ مكانها على جبهة المصلين حتى يعرفهم لاعرق بين الصالح منهم والمرائي وكان الحاج سالم الى جانب مكانته الدينية ذا عمل آخر بالقرية فقد كانت الودائع جميعها تأخذ طريقها اليه فيحفظها لاصحابها حتى اذا احتاجوا اليها ولبسوها عنده وجدوها كما اودعوها اياه بربطتها كما يحلو لهم ان يقولوا .

كان الشيخ يجلس منفردا حين دخل اليه حسين .

ـ السلام عليكم ياعم الحاج .

ـ وعليكم السلام يا ابني ورحمة الله وبركاته اهلا وسهلا .

ـ انا حسين بن شحاته ابو اسماعيل .

ـ اهلا وسهلا .. رحم الله اباك .. كان رجلا طيبا .

ـ اريد أن أذهب الى الازهر ياعم الشيخ .

ونجهم وجه الشيخ قليلا ثم قال :

ـ وماذا بعد دهابك الى الازهر ؟

ـ وماذا بعد ياعم الشيخ ؟

ـ اى ماذا تنوى ان تعمل ؟

ـ اريد ان احصل على شهادة العالمية .

ـ العالمية ؟!

وسكت الشيخ قليلا . اذن فسياتى

له منافس في الغربة - نعم ان امامه سنوات طوالا حتى ينال الشهادة وربما مت انا في هذه الغربة ، ولكن ماذا يكون العمل لو انني عشت .. أيأتي هذا الطفل وقد حصل على شهادة العالمية واصبح انا بسيا في هذه البلد منسيا .

ـ وماذا تنوي ان تفعل اذا احصلت العالمية ان شاء الله ؟

ـ اريد .. اريد .

وسكت فقد اصبح لايدري مايقول .. فما كانت آماله واحلامه بصالحة ان تلقى على مسامع الشيخ الجليل .. وقال الشيخ :

ـ اتنوي بعدها ان تقيم هنا معنا أم تأخذ طريقك في القاهرة بعد ذلك ؟

وقال حسين مترددا

ـ كل ما اريده الآن ان احصل على العالمية .

ـ يا بني انها شهادة صعبة .

ـ اعرف ذلك .

ـ وقد سقط الكثيرون وهم يحاولون الحصول عليها .

ـ انا اريد ان افهم كلام الله الذي احفظه ولا افهمه واطلق الشيخ تنهيدة وقال :

ـ هل تصدق ان احدا قد فهم كلام الله كله .

ـ لابد انه مفهوم يا سيدنا ولكني انا عاجز عن فهمه .. عالمت مثلا تفسره بكلام مفهوم واضح .. وانا اريد أن افهمه كما تفهمه أنت .

ـ يابني فهمت شيئا وغابت عني أشياء .

ـ لا بأس .. انما اريد ان افهمه .

ـ ولماذا ؟

وسكت حسين قليلا ثم قال

ـ لماذا اريد ان افهم كلام الله ؟

ـ نعم لماذا .

ـ لاعرف ديني .

ـ الا تعرفه .. الحلال بين والحرام بين .

ـ نعم ولكني اريد ان افهمه جميعه وان ادرس ديني على الاساتذة الكبار في الازهر .. لاني .. لاني .

ـ لانك تريد ان تشرحه لغيرك .

ـ نعم ولاني ايضا .

وسكت حسين لحظات حتى قال الشيخ :

ـ ولماذا أيضا ؟

ـ ولاني احد حلاوة كلام الله لاادري اسبابها .

ـ لعلك اذا اصبحت وكلام الله حرفتك تفقد هذا الشعور بالحلاوة .

ـ افقدت انت هذا الشعور يامولانا .

ونهبت الشيخ ثم مالبث ان قال ملهوفا وكأنه يدفع عن نفسه تهمة كفر والحاد .

ـ لا .. لا ابدا .. استغفر الله العظيم .. استغفر الله العظيم .. انه لا تعني الدنيا عن الآخرة .. لا .. لاتعني الدنيا عن الآخرة .. ماذا تريدني ان افعل لك يابني .

ـ اريد منك توصية لاصدقائك هناك .

ـ اكتب لك ما تريد ان شاء الله .

ـ بارك الله لنا فيك ياعم .

ـ بارك الله خطاك يا ابني .. مع السلامة .

ـ ١٠ ـ

كان حسين جالسا في بهو البيت الى اخيه محمد ، وقد راح محمد يتلو السور القصار وحسين يستمع اليه ويصحح خطأه من حين الى آخر . بينما كانت الحاجة نبيه تجلس الى الاريكة التي تحب الجلوس اليها وامامها معدات القهوة وقد

لرتاحت نفسها لمنظر الولدين تكاد تحس انهما ابناها .. نعم حسا ابناى . اما الصغير فامه لم تره ولم يرها واما الكبير فانه ان ذكر امه فكما يذكر حلما بددته اليقظة . حسا ابناى وان لم الدهما .. وقد كان الصبي والفتى في شغل عما تفكر فيه الحاجة فاما محمد فمشغول بهذه الصور القصار التي ان لم يحفظها الهالت عليه في صبيحة اليوم التسالي عما التسبيح واما الفتى فمالحلامه التي يريد ان يسلك اليها السبيل ويخشى ان يعوقه عنها رغبة الحاج العميقة في ان يعلمه تعليما مدنيا .. فقد سمعه يقول للحاجة انه يريده ان يقصده به الى المدرسة الابتدائية في المدينة آملا ان يعلوه في السنة الثالثةوالا ففي السنة الثانية . ولم يستطع ان يهاجم الشيخ في آماله وهو يعلمها له قصير ان تلوح فرصة اخرى فيكتشف عن حوالج امله هو التي اصرحت بنفسه فهي تملأ عليه جوانب حياته حسيما .

وانتهى محمد من حفظ اللوح وخرج الى رفاق ملعبه وظل حسين مكانه وتطلع الى الحاجة يريد ان يقول ولايقول فلايجد ما يعمله الا ان يمسح تلك الدمعة التي تلازم عينه وراته الحاجة وهو يزيل دمعته فاحست خالجة عطف نحوه وزادت عطفا شفتيه الكلمات وارادت أن تصمت حتى يبين ولكنها مالبثت ان اشفقت عليه فقالت :

ـ هيه يا حسين .. ماذا تريد ؟

وانتهش حسين ولكنه انتهز الفرصة فقال .

ـ اريد ان اذهب الى الازهر الشريف يا ام الحاجة .

وقالت الحاجة بسمه :

ـ ونعم يا ابني .. تذهب ان شاء الله .

ـ اخاف ان يرفض ابا الحاج .

ـ لماذا ؟

ـ انا اعرف انه يريدني ان ..

ودخل الحاج والى قبل ان يكمل حسين جملته فصمت حسينوقام يستقبل الحاج ورحبت الحاجة بزوجهـا الذي اتجـه مجلسه على الاريكة والتفتت الحاجة الى حسين ثم نظرت الى الحاج واحس الحاجان بين الاثنين حديثـا يريد ان يرقى الى مسامعه . بل احس ان الحاجة تريد ان ترجوه في شأن يهم حسين ، وقد كان يحب ان ترجوه الحاجة في امور حسين حتى يشعر بالراحة وهـو يجيب مطالبها . ولكن الحاج رأى تظاهر بانه لم يفهم شيئا فاخرج سبحته وراح يساقط حباتها مسبحا في تمتمة وترقب .

وقالت الحاجة :

ـ لما عندك رجاء ياحاج .

ـ قوليه ياحاجة .

ـ حسين يريد ان يذهب الى الازهر .

وجمع الحاج سبحته في حركة سريعة وقال .

ـ ماذا ؟

وقالت الحاجة :

ـ ولماذا لا ياحاج ؟

وتحامل الحاج تساؤلها والتفت الى حسين .

ـ اهذا ما تريد ياحسين ؟

وأطرق حسين وهو يقول :

ـ ان شئت يا ابا الحاج .

ـ لماذا ؟

ـ اريد ان اتفقه في القرآن .

ـ اهذا حقا ما تريد .

ـ نعم .

ـ ولكن ولكن ..

وصمت الحاج والقى بنظره الى امامه وراح يفكر .. ايهما افضل لهذا الفتى ان يعلم الغيب .. وأحس كأن ضبابا كثيفا يتكون شيئا فشيئا امام عينيه المتطلعة الى المستقبل ولم يفق الحاج من سرحته الا على يد الخاجة وهي تربت ذراعه .

ـ وماذا فى ان يتعلم الفتى الدين ؟

ونظر الحاج الى حسين قائلا :

ـ اخشى ياحسين ان تكون قد اخترت الازهر لان التعليم فيه لا يكلف مالا .

ـ لا .. لا .. لا ابدا يا ابا الحاج .

ـ ان امنيتى ان تكون محاميا او طبيبا .. فانى اعتقد ان مصر فى أشد الحاجة الى المحامين حتى يدافعوا عن حقوقها أو الاطباء حتى يشفوا المرضى بها وهم كثير .. امى فعلا ارجو ان تكون واحدا من هذين .

وقال حسين وقد نكس رأسه :

ـ وانا لا اريد من الدنيا الا ان ارضى رغباتك جميعا ولكنى احس انى لن اوفق الا فى الازهر الشريف .

وصمت الحاج وال قليلا مداعبا حبات مسبحته ثم قال :

ـ يا ابنى انا لا أحب ان املى عليك ما تفعل لتكن مشيئة الله نافذة .. تستطيع ان تجهز نفسك لتذهب الى الازهر باذن الله واشرق وجه حسين وانبسطت اسارير الخاجة واكمل الحاج والى تسبيحه وال كان الضباب مايزال جاثما امام ناظريه .

ـ ١١ ـ

كان زين العابدين بك مسافرا الى القاهرة وقد انتهز الحاج والى الفرصة فرغب اليه ان يصحب حسين ، ويمهد له السبيل فى الاقامة بالقاهرة التى لم يرها الفتى قبل ذلك ابدا .

وهكذا هبط حسين القاهرة لاول مرة فى رفقة زين العابدين بك ولو لم يكن فى هذه الرفقة لعاد مرة اخرى طريقه الى الغربية وقد استقر فى نفسه ان القاهرة جحيمها لرتحل ، والا فما هذا الزحام وهذه الضجة ، وهؤلاء الناس ، ومالهم جميعا ملهوفين متسارعين تتصادم ابديهم او يتصادمون جميعا بعضهم ببعض كأنهم مطالب الحياة المتعارضة المتضاربة ، أهكذا المدينة ، يحمل اهلها الى مقاصدهم فى هذه السرعة اللاهثة ، وهذا الجد الصارم ، مالهم يمر بعضهم ببعض ، أو يحتك بعضهم ببعض فلاتحية ولا سلام ولا حتى اعتذار .

مشدوه حسين مما يرى فهو ذاهل عما يحمله من اثاث ومؤونة ، يتولى عنه زين العابدين بك الانفاق على الحمالين ، وقد كان الاثاث قليلا غاية القلة وكانت المؤونة كثيرة غاية الكثرة فالاثاث سرير وصندوق كبير ، والمؤونة سلال متكاثرة اتكبت عليه من حنان الخاجة نبية ومن شعور جده وجدته بما عليهما من واجب نحوه .

وفى غمرة الدهش والذهول وجد حسين نفسه مسوقا مع الموجات المسوقة وقد امسكت ذراعه يد زين العابدين لاتفلته واحس لحظة باليد ، وحيل اليه ـ وان كان لايدرى لماذا ـ ان يدا ماتمسك هؤلاء السائرين جميعا فهم قطيع سائر يلتمس المرعى أو يلتمس المأمن .

وخرج حسين الى ساحة المحطة الخارجية .. ان ثمة متسعا كسعة الريف ولكن العربات الكارو والحنطور

والسيارات والناس تعدو على هذه السمة فهي زحام . ووجد نفسه في عربة حنطور بجانب زين العابدين بك وكاد ان ينسى ما يحمله ولكنه نظر خلفه فوجد كل ما حبته اياه القرية قد وضع في عربة حنطور اخرى فلم يسأل من فراقها الا قليلا .. نعم الا قليلا ، فما أقل ما حمل من القرية من اثاث وما أكثر ما حمل من القرية في نفسه .

وراحت العربة تسعى بهما في شوارع القاهرة ، الحصان يسير وقد وضعت حول عينيه من الجانبين قطعتان من الجلد حتى لا يبصر الا ما يريد له قائده ان يبصر ، فهو يمشي بالعربة ولا يملك ان يبصر الا ما تتركه له قطعتا الجلد فالطريق امامه ليس الا بقية مما تترك له العمامة وصاحبه مع ذلك لا يعفيه من الضرب فهو يسوطه من حين الى آخر ، ونظر حسين الى الحصان .. لقد عرف الحصان طريقه وان تكن عمامة حول عينيه ، وان يكن عرف صاحبه بسوطه الا انه عرف طريقه . استطيع هو ان يعرف طريقه .. اتراه يعرف طريقه ، انه ثائه في هذا الزحام وفي هذه الشوارع الواسعة وعلى امتداد شارع زين العابدين ، وتمنى لو يبقى معه لا يتركه ، ولكن هيهات ، فانه ليعلم انه ما هو الا بعض الوقت حتى يتركه زين العابدين فردا يواجه هذه القاهرة جميعا بكل ما فيها من ناس وخيل وعربات وعلم .

البيوت الضخمة الضخمة بتصاميمها بحانبها اكبر بيت في القرية والمآذن الفارعة سامقة الى السماء فالاذان منها اذان من السماء دعوة الى الارض ان تتشرف الى الله ، هدى في السبيل المعتم ، وضياء بعد الظلمات ، وصفاء بعد الحر المتصل الكثيفة من الرغبات اللامعة والمطالب المتراحمة . والناس يعدون في سبلهم لا يعرفون للمكان عينا ، ولا يعنيهم الا ما يقصدون اليه وحسين يرداد ذهولا على ذهول وزين العابدين يتعثر بحمل مقدمه في العربة يريد ان ينتهي من هذه المهمة ليتصرف الى قاهرته التي لا يعرف غيرها هناك في الدار ومع السوة التي يستبدل الواحدة منهن بالاخرى ضاربا موعده لاسته وهي بعد وليدة عرض الافق والعربة يسعى بها الحصان والسوط يسوطه كلما جرى يضع خطوات في أوقات تكاد تكاد تكون منتظمة ، فما فعل شيئا يساط من اجله وانما هي رغبة سائقه وحبه ان يسوط شيئا اي شيء دون ان تدعو لهذا حاجة من تلكؤ ، او عصيان لامر .

وفجأة انتقلت العربة من الشوارع الفسيحة العريضة الى اخرى ضيقة مازالت تضيق حتى اصبحت العربة لا تسير الا بشق الانفس فهي ترحرحها وتنهال السياط على الحصان ويتدافع السباب الى المارة فما تجدي السياط ولا يقلع السباب ، والتفت السائق الى زين العابدين يسأله عما يريد من مناطق الدراسة ، وقال زين العابدين :

ـ اريد ان اجد بيتا للتسبيح .

وتبسم حسين فجأة انه شيخ ، وانه يلبس العمامة والجبة الخضراء والقفطان الزيتوني ، لقد ادهشته القاهرة عن نفسه وعما يلبس وقال سائق العربة :

ـ اعرف بيتا هنا به حجرة خالية على سطح .. اتريد اكثر من حجرة يا مولانا .

وابتهج حسين من كلمة مولانا وقبل ان يجيب كان زين العابدين يقول :

ـ واخل من غرفه ان امكن ٠٠ اين هي ؟

وقال السائق :

ـ نترك العربتين هنا ونذهب لنتحقق ٠

ـ وقال زين العابدين :

ـ لماذا ٠٠ الا تستطيع ان تذهب بالعربة الى هناك ؟

ـ البيت في زقاق ضيق ٠

وقال زين العابدين :

ـ وهل البيت بعيد ؟

ـ لا ٠٠ انه هنا على بعد خطوتين ٠

ونزل زين العابدين وتبعه حسين وتقدمهما السائق بعد ان اوصى زميله الآخر ان يولي العربة عينا يقظة ٠

ومشى الركب ، لم يكن البيت على بعد خطوتين ، لا ولا ثلاثة ولا عشرة لا ولا تصلح الخطوات وحدات لقياس المسافة التي يبعدها البيت عن المكان الذي تركوا فيه العربات ، لقد مشوا مايقرب من كيلو ونصف كيلو وتوقفوا ، وطلب اليهم السائق ان ينتظروا لحظات ريثما يلقى صاحب المنزل ٠ وصعد ثم نزل ٠٠ ان صاحب المنزل في دكانه ٠٠ واين الدكان ٠٠ على بعد خطوتين ايضا ٠٠ وقال زين العابدين :

ـ ألا ترى الحجرة اولا ، حتى اذا احتجتنا نتحقق ٠

وصعد السائق ثم مالبث ان قال تفضلوا ٠٠ كان المنزل مكونا من ثلاثة طوابق ، ولكنها طوابق مرتفعة عدرجات السلم كثيرة ترتفع كل درجة عن زميلتها ارتفاعا مضنيا ،وهكذا راح زين العابدين يك يترع نفسه انتزاعا ليبلغ حجرة السطح ٠٠ حتى اذا بلغ الركب الطابق الاخير الذي لايعلوه الا السطح لاحظ زين العابدين كما لاحظ حسين ان الباب مفتوح انفراجة ضيقة تسمح للعين ان تتلصص من الداخل الى الخارج ولاتسمح للعيون الاخرى ان تتسلل من الخارج الى الداخل ٠ التفت زين العابدين الى حسين والتفت حسين الى زين العابدين ولكن زين العابدين كان يلهث ان يقول شيئا اذا اراد ان يقول ، وكان حسين يفكر افكارا غير محددة ولا واضحة حول هذه الانفراجة التي طالعتهم من الباب الذي لا يعلوه الا السطح ٠

وقال السائق :

ـ لقد اعطت لي زوجة المعلم بالمفتاح من تحت الباب فانا لااعرف اين الغرفة واين الحمام ولكني ساجدها على كل حال ٠

وتقدم بمفتاحه يعالج الابواب الثلاثة على السطح حتى اذا اصاب له احدها فتحه على مصراعيه وهو يقول :

ـ بسم الله ما شاء الله ٠٠ غرفة تشرح الصدر ٠٠ وهاهوذا الحمام امامها مباشرة ٠

ـ وقال زين العابدين مشيرا الى الباب الثالث :

ـ وما هذه ؟

ـ هذه ـ والله اعلم غرفة اصحاب البيت التي يغسلون بها غسيلهم بطبيعة الحال سيكون الغسيل في الصباح ومولانا سيكون في الاظهر فلا شان له بهم ٠

كان التعب قد بلغ من زين العابدين مبلغا لايسمح له بالمناقشة فهو يسأل حسين في سرعة :

ـ اتعجبك الغرفة ياحسين ؟

ولم يجد حسين حيلة في الا تعجبه الغرفة فهو يقول :

- نعم .

وبعد ساعة اخرى كان حسين مستلقيا على السرير في غرفته وحيدا في القاهرة على سطح اول بيت دخله غير بيوت قريته ، ودمعة عينه مسكبة لم يرد عليها الا دمعة ارسلتها عينه الاخرى احس انها بريحه وهي تأخذ سبيلها على خده وان كانت اسباب بكائه متحفية في اعماق نفسه لايدري حقائقها ولا اسبابها وفي هدوء مد يده الى صدره وتحسس الخطاب الكامن هناك حتى اذا تأكد من وجوده رفع يده الى عينيه يمسح عنهما الدموع .. ان قريته لم تتركه وحيدا . فها هوذا خطاب الحاج سالم فخر الدين الذي يوصي فيه رفيق دراسته الشيخ صالح الاشموني بحسين خيرا في حينه يؤنس وحدته ويجعله يؤمل انه واحد في القاهرة انسانا قد يوليه بعض عطف أو بعض اهتمام وحسب الغريب في غربته بعض عطف أو بعض اهتمام .

- ١٢ -

احس الشيخ وائل حين سافر حسين انه لم يحقق فيه الامل الذي كان ينشده من تعليمه وصير نفسه انه على كل حال ليس ابنه ، واوداد عزما ان يعلم ابنه التعليم الذي كان يريده له وكأنما اراد ان يستعجل السنين فهو يفكر ان يدخل محمد منذ سنه هذه الباكرة الى المدارس الاميرية وهم ان يعمل ولكنه مالبث ان تذكر ان سنه لاتسمح بذلك فانتظر على كره منه عازما الا يبدأ العام الدراسي الجديد الا ومحمد تلميذ في المدرسة الاميرية .

وكان محمد يذهب الى [illegible] انتظام وكان يحاف عصا الشيخ التي يتناول بها المهملين من اذنه فهو حريص على ان يحفظ اللوح فيجيد حفظه الا انه بعد ان سافر حسين وانفرد به اللوح اصبح الحفظ بالنسبة اليه عملية شاقة يبذل فيها ساعات طويلة كانت تحلو بفصل حسين ليلعب فيها الكحكشة أو ما يحلو له ولرفاق ملعبه من العاب .

فهو الآن لايفرغ من حفظ اللوح الا والشمس قد مالت للغروب فهو لايصيب من اللعب الا حظا يسيرا ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن حفظ اللوح مهما يفقد من ساعات اللعب فلعب قليل مع تحصيل لالام العصا خير من لعب كثير يعقبه هم كثير .

وكان محمد يذهب في بعض الاحيان الى بيت زين العابدين ليلعب هناك مع ابنته آمال وكان يصحبهما في الملعب اطفال آخرون من بينهم رشاد ابو عبد الباقي . وكان رشاد يلاحظ اهتمام آمال بمحمد ويحاول جهده ان يستثير اهتمامها به فقد كان يحس فيها شيئا مختلفا عن الفتيات الأخريات فملبسها غير ملبسهن وطريقة كلامها غير طريقتهن فهو يحس ان ثمة فارقا بينها وبين بنات القرية وان كان لايدري سبب هذا الفارق ولا حقيقته وكان يرى في دمائهم اليها دون ان تدعى هي يسعوا الى ملعبهم في حرن القرية فضلا لها لا يمكن التغاضي عنه .

ولم يكن يدري السبب في ان الصلة التي تصلها بمحمد اقوى من جميع الصلات الاخرى التي تصلها باطفال القرية فما كان يعلم ان الخاصة تمة كثيرا ماتزور بهية هانم مصطحبة معها محمد في زياراتها ، فآمال معذورة ان تأنس الى

محمد فهو وحده الذى يكثر من زيارتها، ولكن رشاد لايهمه من هذه الاسباب جميعا الا ان محمد اقرب الى آمال منه وهو لا يقبل هذا . فهو يتحين الفرص ليذل من محمد نيلا يصيب منزلته عند امال وقد واتته الفرصة من قريب .

كانوا يلعبون امام بيت زين العابدين حين جاءت الخاجة لتزور بهية هانم،وكان الليل قد اوشك ان يخيم على القرية،فرأت الخاجة بسمه ان ينتهى لعب الاطفال . فهى تنادى محمد وامال وتصعد بهما الى الطابق الاعلى - ويضيق رشاد بهذا ضيقا شديدا ، فان امه لاتكثر من زيارة بهية هانم كما تفعل الخاجة ، ولايستطيع هو ان يصعد وحده فما له من رفيق يجعل صعوده طبيعيا ولكنه يابى ان ينصرف مع الاطفال الآخرين الذين انصرفوا فهو يمكث مراقبا لباب البيت منتظرا وان كان لايدرى لماذا - خروج الخاجة بسمه ومحمد وفى الطابق الاعلى يكون اجهاد اللعب قد اخذ من محمد مأخذه فما هى الا ان يريح جسمه الى الكرسى حتى يهاجم النوم عينيه فيستسلم له فى اذعان ودعة والخاجة بسمه مشغولة عنه بالحديث الى بهية هانم حتى اذا حان موعد الانصراف نظرت الى محمد فى كرسيه فوجدته فى نومته العميقة وتحاول ان توقظه ولكن بهية هانم تلح عليها ان تتركه يقضى الليل عندهم وتعدها انها ستوقظه فى الصباح ليذهب الى الكتاب وتنسحق الخاجة بسمة على محمد وتتركه وتأخذ سبيلها الى الخارج .

وما تكاد تغادر باب زين العابدين حتى يبيت رشاد من ثنايا الظلام .

- اين محمد ياخالتى الخاجة ؟

- بسم الله الرحمن الرحيم ، مادا تفعل هنا يارشاد ؟

- لا شىء .. كنت هنا .. اين محمد ؟

- نام فتركته عندك البيت حتى الصباح .

وفى الصباح ايقظت بهية هانم محمد وقدمت اليه افطارا كريما وتركته ينطلق الى الكتاب ، ومر محمد بمنزله فأخذ اللوح وتوجه الى الكتاب . وهناك كان رشاد قد دبر مؤامرته فقد لقيه الشيخ فى غصة عميقة .

- اين بت الليلة يامحمد ؟

- فى بيت زين العابدين بك .

ولم يرد فقد امر به الشيخ فأمسك غلامان بقدميه وانهال الشيخ عليهما ضربا مبرحا .

وبينما كان الخاج وال يحتم صلاة الضحى فوجىء بصيحة على الباب فنظر من شباكه فوجد محمد على حمار يبكى بكاء مرا فخف اليه فوجد قدميه متورمتين لايستطيع ان يلمس بهما الارض واحتمل الشيخ ابنه وقلبه ينطرلهفا عليه وما ان اودعه السرير حتى قصد الى الشيخ فى كتابه .

- لماذا هذا ياعم الشيخ عبد العظيم؟

- الم ترسل لى رشاد ان اضربه لانه بات ليلته خارج المنزل ؟

- لا .. لم افعل .. وان كنت فعلت اهكذا يضرب الاطفال .. لن يعود محمد الى الكتاب ثانية ياشيخ عبد العظيم .

وخرج الخاج وال وقد ردد اصراره ان يتوجه محمد منذ الآن الى التعليم المدرسى

فهو يقصد الى ربى العابدين ويلتقى معه هل ان يشارك محمد آمال فى الدراسة المنزلية حتى يبدأ العام الدراسى الجديد فيذهب الى مدرسة البندر .

اما رشاد فلم يكفه ما وقع عليه من عقاب الشيخ الذى حرم عما كان يفيده من تعليم محمد بل زاد الطين بله ان محمد اصبح رفيق آمال فى الدرس ايضا لا فى الملعب وحده .

- ١٣ -

اشترى الحاج والى عربة وحصانا حتى ييسر لمحمد ان يذهب الى المدرسة فى الصباح الباكر ، وقد كان يشفق على الطفل الصغير وهو يصحو معه فى الفجر ثم يخرج الى برد الشتاء القارس ليقطع ثمانية كيلو مترات الى المدرسة . وكان الحاج والى كلما تأمل .. انساوى الحياة هذا الجهد نبتت امام عينيه تلك القطعة من الضباب جوابا على تساؤله فيزداد على حيرته حيرة ولا يملك الا ان يوقظ وليده فى فجر اليوم التالى فيصليان الفجر معا ثم يحمل الطفل الى مدرسته لايدرى مايكابده ابوه من الم لخروجه هذا ومن تساؤل وحيرة .. الهذا كنت اتمنى لى ولدا .. الهذا ضحت امه بحياتها وضحت زوجتى بكرامتها .. الخير بهم لسملأ حياتهم تعبا وسلاحياتنا شقاقا .

وماذا لقى محمد بعد من الحياة ، وماذا افعل حين يوغل فيها وتلقاه بوجهها هذا القاسى الجامد .. ويتصاعد الضباب امام عينيه فيغلق عقله نفسه منابت التساؤل والحيرة ويلقى بنفسه الى دفاع الحياة .

عاد محمد فى يوم من المدرسة وصوت يحس رعشة تهز جسمه جميعا فاعصابه تصطك فتصك جسمه كله كأنها المطارق واطرافه ترتعش رعشة تهز كيانه فهو كيان هش ضعيف انصبت عليه ريح عاتية توشك ان تقتلعه من الجذور .

وتلقفه الحاجة بمية باشفاق وراحت تضع عليه الاغطية وتحيطه بزجاجات الماء الساخن ولكن الرعشة لا تريم عنه مكانها هى فى مكان حى من جسمه لا يدرك مكانها الماء الساخن ولا يصل اليها دفء الغطاء .

واقبل الحاج والى من الخارج فوجد ابنه على حاله هذا فهو يسارع الى البندر ويجلب الطبيب الذى يقرر ان الطفل قد اصيب بالتهاب رئوى حاد وحين يسأله الحاج والى :

- احطر هذا المرض ؟

- كل الخطورة .

- وماذا نعمل ؟

- الاعمار بيد الله .

الاعمار .. وهل بلغت الحالة الى ذكر الاعمار .. الاعمار .. اكل ماكان ينتهى الى هذا .. أكانت الحاجة بمية تخطب لى وكان موت صالحة المسكينة من اجل الالتهاب الرئوى .. اهو الذى يحصد ثمرة ماضحت به المرأتان الطيبتان .. امن اجل هذا يأتى الاطفال .. ولدى .. ماذا .. ماذا انت فاعل بى .. اهذا افعل بعد ان تحقق .. اكان قد تحقق من اجل الالتهاب الرئوى .. ايرضى الله بهذا .. نعم يرضى .. فما هذه الدنيا بالتى يجزى الله فيها المحسن خيرا والمسىء شرا

الم يمت ابراهيم بن محمد رسول الله ..
وحيده .. مات طفلا .. فلماذا لايموت
محمد بن والى . وما محمد بن والى . في
حساب الدنيا .. مجرد روح صغيرة
ولم تتفتح بعد للحياة ، وما والى ..
شقي من الاشقياء قطع عمره على امل ان
يكون له طفل حتى اذا كان حانه الالتهاب
الرئوي .. وفي الآخرة يتولى الله ثوابه
ولكني بشر .. لقد صبر النبي على
بلواه .. اترى اصبر انا .. يارب انني
اصغر من هذا الامتحان وانت تدري
انت تدري انني اوهى عظاما واقل صبرا
من ان احتمل هذا الابتلاء .. يارب انك
تقول المال والبنون .. وتقول لنبلونكم
حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ..
فليكن ابتلاؤك في المال .. كل المال ..
اما البنون فما عندي من بنين الا محمد
هذا فدعه لي .. فما انا بالذي يصبر
لهذا البلاء .. اني اعلم وانك تعلم انني
اقل من هذا البلاء .. يارب .. يارب ..

كان الدعاء والدواء والصبر هو كل
ما يملك الحاج والي . وكانت الخادمة نعمة
هي التي تقوم بتمريض الطفل في حنان
وامانة وامتثال تكاد لا تذكر الا انه ابنها
فما عرفت لنفسها ابدا الا بالنسبي
وما عرف هو اما الا هي ..

وفي بطء شديد شفي محمد وعادت
الابتسامة الى الحاج والى وعاد النوم الى
الخادمة نعمة .. احس الحاج والى سعادة
.. سعادة لم يعرف لها مثيلا في حياته
ما احق ان يكون لي ابن يحيط به الخطر
ثم ينجو .. كانما اصبح لي ولد جديد ..
انهم ليهبون قلوبنا بالسعادة والجنة
هؤلاء الاطفال .. لا .. لاشيء يعدل ان
يشفى ابني من مرض خطير .. لا ..
لاشيء يعدل هذا في الوجود .

وواجهت الحاج والى مشكلة اخرى ..
أيعود محمد الى المدرسة فيتعرض للبرد
مرة اخرى وللمرض .. وسرعان ماحسم
المشكلة .. فمادا يصنع محمد ان لم
يذهب الى المدرسة .

ومن جديد عاد الحاج والى يوقظ محمد
في الفجر فيصليانه جماعة ثم يتعجل
محمد الى مدرسته ليواجه البرد الشديد
والمر الشديد والعلم الثقيل ..

- ١٤ -

كان زين العابدين جالسا في شرفة
داره ينتظر عربته ان تعود من المحطة
حاملة حماته وحماه الذي ابرق اليه انه
قادم في يومه هذا .

وكان زين العابدين سعيدا في انتظاره
هذا فقد تولت ثلاثة كلاب او كلبان
وكلبة تسليته بتمثيلهم امامه قصة
الثلاثي الخالد الروح والروحة والعشيق
وقد اندمج ثلاثتهم في ادوارهم اندماجا
اسعاه المتفرج الوحيد زين العابدين .

وقد اختارت الكلبة دور المنتظر
لا نجم بمواطفها او تصرفاتها جنوحا
ينبيء عن حقيقة مشاعرها نحبذا راح
الكلبان يعتركان ويتجه كل منهما الى
الكلبة كلما خيل اليه انه بلغ من عدوه
ما يشتهيه له من هزيمة فما يلبث الآخر
ان يلحق به في منتصف الطريق يرده
عن الكلبة ان يصل اليها . ولم يكن زين
العابدين يعلم اي الكلبين هو الزوج
وايهما العشيق فانهم في دنيا الحيوان
يتقاربون فيختلطون ولكن زين العابدين
رأى في عيني احد الكلبين دلة وانكسارا
ورأى في عيني الآخر توثبا وحراة وكاد
يعرف من هذه النظرات حقيقة كل منهما
الا انه عاد فاختلط عليه الامر لايدري

مدى ما اصابه من ضيق النظره وقصر الاستنتاج . واستطاع احد الكلبين ذو النظرة المتفحصة ان يصل الى الكلبة آخر الامر . واستقبلته القاهرة استقبالا حارا حمل الكلب الاخر الكبير النظرات مذهولا محجما عن محاولة كان قد بداها لولا الكلب المتمرس وكانما اصاب هذا الترحيب من الكلبة كبرياءه فهو يمعن النظر حينا وتبدو عليه الوان من الحيرة والدلة والرغبة والرهبة ، ثم يولى الكلبين والمسرح ظهره ويتصرف عن المسرح جميعا .

ولو كان للمسرح ستار لاسدل على الكلبين الآخرين فان الرواية كانت بلغت ما يجب عنده ان تنحني شخوصها بين الكواليس ولكن زين العابدين ظل يرنو الى الكلبين متشوقا الى القاهرة وصديقته الجديدة سنية شخلع حسيرا في الوقت نفسه لقلة المال معه ، اسيفا انه لم يعد يستطيع ان يبيع اكثر مما باع فقد تضاءلت ارضه واصبحت اربعين فدانا وما يستطيع بعد ذلك ان يبيع منها شيئا ولا يستطيع كذلك ان يواجه ما تحتاجه سنية من مصاريف ولا هو مطيق ان يهجر سنية او النار فهو في دوامة من الحيرة يتخبط بين حدران من خوف الفقر وبين الرغبة العارمة في بقاء محبوبته ومن قلة الارض لا تستطيع ان تكفل له ما يكفي رعيته ولا تستطيع ايضا ان تضاءل اكثر مما تضاءلت . وقد كانت حيرته هذه قديمة ليس للكلاب فيها شأن الا تذكيره بحقيقة تسيطر عليه اغلب الوقت وقد كان يقاومه بالقرية اكثر ما يضيق به ولكنه لا يملك الا ان يبقى بها وان كان هو لايتولى زراعة الارض نفسه بل يؤجرها الى الفلاحين فاشرافه على

استعاضوا اشراف من لايستعرق من وقته الا اقل وقته ثم هو يفرغ بعد ذلك الى هذه الحيرة وهذا الضيق بالقرية وهذا التشوق اللاهف للقاهره وسنية والنار .

افرغ الكلبين العاشقين صوت العربة وهي تأخذ موقفها امام البيت، وانتبه زين العابدين وهو يستقبل زواره في حفاوة وتوقير ، فقد كان يعلم ان حماه وحماته لا يحبان شيئا في الدنيا اكثر من ان يلاقيا التوقير ايسا دهما . وتقدم زين العابدين من العربة وامسك بيد حماته ، يعاونها منها . سيدة في الخمسين من عمرها ولكنها تتحد من الملابس والحجاب ما يجعلها في الستين فوشاح ابيض يحيط براسها وخمار شفاف يدور حول اسفل وجهها الوردي اللون الذي ماتزال اثار نضرة تتخايل فيه وبين الوشاح على الرأس والخمار على الفم تطل عينان فيهما طيبة وفيهما ذكاء وفيهما حب سيطرة لاتجد محالا ولا متنفسا . اما قوام الست اردهار الناصورجي فكان معتدلا لايتهم بنحافة ولا يعاب بافراط سمنه وترلت اردهار هانم وتبعها زوجها وكي بك الناصورجي و هو شارب يلقى منه كل رعاية وتكريم . احمر الوجه قصير القامة اصلع الراس حتى لايفلح الطربوش الاحمر الزاهي في اخفاء صلعته جميعا انما تطل قطعة كبيرة منها بادية من مؤخرة الطربوش حيث يسدل الزر في نظام واحكام - وكانما كانت هذه القطعة من الصلع تعاقل الطربوش فتخرج الى العيان دون ان يشعر بها .

وقبل زين العابدين يد حماته وانحنى وهو يسلم على حميه انحناءة لاتحطها

العين وشـــاعت فى عينى اردهار هالم علائم رضى وهومت ظلال ابتسامة عـلى شارب زكى بك واحد الجميع ســـبيلهم الى الطابق الاعلى . وثمة استقبلتهم بهية فى ترحاب تحيط به كثير من القيـــود فلا يبدو الا فى تقبيلها ليد ابيها ويد امها ووجنتها وان كانت فى دخيلة نفسها تريد ان تختصر كلا منهما وتقبله قبلات كثيرة عارمة ، وكانما كانت آمال مطلعة على ما فى نفس امها فهى تهاجم جدها وتتعلق برقبته ويقع طربوشه على الارض ويتدحرج وهو فى وقفته حتى ليوشك هو ايضا ولكنه يتماسك وهو يحاول الضحك على فمه محاولا بكل جهده أن يجعل من ابتسامته كثيرة فلا يقطع جهده ، وتتركه آمال الى جدتها فما هى الا صمة واعتناق حتى ينتهك ستر السيدة الوقور فالخمار فى الارض والوشاح فى منتصف الراس والسيدة غير عابئة ولا عاتبة وكانما كانت تشتهى هى ايضا هذا اللقاء من ابنتها فاجابت حفيدتها خواص رغباتها وبهية تحاول ان ترد الابنة العائدة فلا تحفل بها وزين العابدين ينظر فرحان راى طربوش زكى بك الباشمورجى على الارض لاول مرة فى حياته . فهو لم يره قبل اليوم الا منتصبا على راس صاحبه لايميل ولا يحيد مثله مثل شارب زكى بك نفسه . ثم ها هـو ذا اليـوم يرى الطربوش فى الارض والشارب مهوشا من اثر تقبيل آمال ، وتعربد فى نفس زين العابدين ضحكة لامبـــالية تذكره بالنار وسبة شخلع وهو يرى زكى بك ينحنى فى وقار الى الطربوش يلتقطـــه مختلسا النظر الى زين العابدين كانما كان يريده ان يلتقطه هو بدلا منـه أو كانما يريده ـ على الاقل ـ ان يبـــدو وكأنه غير معنيه للطربوش الســـاقط وانحناء الملك الكبير لاحضاره .

وتنتهى معركة الاستقبال ويجلس الجميع ويدور الحديث ولكن لايكاد فان زكى بك يقول فى امر خارم

ـ زين العابدين بك .. انا ســاخد ابنتى وحفيدتى معى الى مصر .

وتعجب زين العـــابدين وقال فى دهشة

ـ نعم .. لماذا .. لماذا ياســعادة البك ؟

ـ البنت كبرت ولابد لها ان تدخل المدرسة .

وصمت زين العابدين فان هـذا حق لاسبيل الى التحاص عنه ، وهو لايريد لها ان تتعلم تعليما مشوها ، كما ان وجود ابنته فى القاهرة يجعل ذهابه اليهـا مقبولا امام نفسه على الاقل ولكن لماذا تذهب زوجته .. نعم .

ـ ولماذا تذهب بهية ؟

ـ لتمكث معها فترة حتى تقعود على المدرسة .

واطرق زين العابدين وقال زكى بك

ـ زين العـــابدين بك .. هل انت مشغول هذه الايام هنا ؟

ـ انا .. لا .. ابدا .

ـ اذن تذهب انت ايضا معنا وتدخل ابنتك المدرسة وتتنزه فى ...

وقطع زكى بك جملتـــه وتنحنح ثم استطرد فى لهجة جادة صارمة كانهـــا لا تعنى شيئا على الاطلاق .

ـ اني اعلم ان مانع هيـــه لامانع .. هيه .

واطرق زين العابدين وكأنه يمتثل لامر لاسبيل الى التخلص منه .

ـ امرك ياسعادة البك .. لا مانع .. لامانع .

ـ ١٥ ـ

ثلاث سنوات مرت بحسين في القاهرة .. ثلاث سنوات يذكرها وهو مستلق على سريره بحوار قطة تلوذ بيده الحانية عليها في غرفته المنفردة منله على سطح بيت ساقته اليه عجلة زين العابدين بك وابقاه فيه خوفه ان يواجه البحث عن بيت جديد ، فقد كان يخشى ان يلقى من القرية اكثر مما لقى والحجرة عرفها لمدة يوم ثم اسبوع ثم شهر احب اليه من اخرى مهما تكن تفصيلها لم يعرفها قط .. لا .. لايريد ان يوغل في الاغتراب اكثر مما اغترب . فهو يحيى في الغرفة ، باردة في الشتاء حارة في الصيف لكنه الفها والفته وقل ان يجد شيئا يالفه في القاهرة الكبيرة الواسعة المترامية الاطراف ومع الايام التي اصبحت شهورا فسنين أصبحت هذه الحجرة على السطح ملاذه ومأمنه هرع اليها هالعا من القاهرة فأمنت خوفه واقرت مضطربه واستراح بين ضلوعه قلب مفزع شديد الوجيب عاصف الضربات . ليس يمضي يوم فزع الى غرفته هذه في ذلك اليوم المشئوم من ايامه الاولى في القاهرة يوم نزل مرهوا بجثته وقطعانه وحداثه اللامع يتبخترون في الشوارع يزين لنفسه ان يتفرج على القاهرة معتقدا ان الاعين فيها جميعا ستوقد ترمقه بالاجلال والاكبار . وسار على غير هدى وراح يتلفت حواليه ايما سار محاولا ما وسعه الجهد ان يرى اثر قمصانه وعمائمه الزاهية على من يمر بهم من الناس حذرا كل الحذر ان تنحدر هذه الدمعة التي لاتترك عينه فهو يمسح هذه سواء لديه كانت الدمعة منحدرة او كان مكانها جافا لا اثر للدمع فيه . وتعود اليه نظرته توهمه ان العيون تتبعه وان كان هو في بعيد نفسه يعلم ان ماتلقيه اليه نظراته وهم لا يتصل بسبب الى الحقيقة . فالناس منصرفون عنه الى ما يشغلهم من حديث او عمل او لهو ، ولكنه مع ذلك يحب ان يصدق اوهامه اكثر مما يحب ان يصدق الحقيقة التي يعلمها ، فهو وقور في مشيته ، بطيئة خطواته قليلة حركاته الا تلك اليد يمسح بها من حين الى آخر دمعته الحقيقية أو الموهومة لا يدري وانما هي يده يرفعها بين الفينة والفينة لانصيب الدمعة شيئا من وقاره أو اناقته .

وظل سائرا يتهدى به شارع الى حارة أو حارة الى زقاق حتى انتهى به المطاف الى اصوات عالية اوضح مافيها ايمان مغلظة تتراوح بين ايمان الطلاق والقسم بالله ثلاثا ، وراح يقترب من الاصوات لان طريقه يحتم عليه ان يقترب منها حتى أصبح في مركز الدوامة .. من الصراخ المرتفع .

ـ وانت من ادراك بكلام الله .. يارجل دع العلم لاهله .

ـ اسم الله عليك انت يا عالم .. اكنت من رجال الازهر انا لم ارك في يوم من الايام تلبس العمامة .. الا اذا كان ذلك قبل ان اعرفك .. اى قبل ان تولد .

ـ يارجل .. يارجل اتق الله .. روحني طالق ياشيخ ان لم تكن هذه الآية من كلام الله .

ـ تعني انها من القرآن ؟

ـ في القرآن ؟

ـ روحتي طاق تملانا ان كانت في القرآن او كانت تعرفه أو شافته رجلان على جانبي الطريق ؟؟ احدهما على باب وكان حوله رهط من الاصدقاء والآخر على المقهى في الجهة المقابلة يحيط به هو الآخر رهط من المحبين ـ وكلا الرجلين يريد ان يكون ذا علم ـ وحسين يمر بينهما وتخطف اذنه هذا النقاش فيسير طريقه واثقا ان الجماعة ستنشغل بنقاشها عن قعطانه وعمامته ويمر حسين المقهى والدكان ويوشك ان يبتعد ولكن الصراخ ينقطع بشكل مفاجيء فلا يسمع حسين الا كلمة واحدة

ـ تسأله ؟

ويعقبها صوت يصيح اصواتا

ـ يا استاذ ؟

ويمضي حسين سبيله ولكن الاصوات تتعالى ؟

ـ يا سيدنا ؟؟ ياشيخ ؟

ويقف حسين ويلتفت وهي عيونه سؤال يريد ان يتأكد به انه هو المقصود وتتعالى الاصوات مرة اخرى ؟

ـ نعم انت ؟؟ تسمح لحظة ؟

ويتجه حسين الى الجمع ويبادره الرجل الجالس الى المقهى ؟

ـ عريدك في سؤال ؟

ويفرح حسين ؟ فقد واتته الفرصة سكرة ان يصبح اهل افتاء فيجلس الفرقصاء معتمدا قدميه دون ان يلامس جسمه الارض مرتبا وجهه الى اهل المقهى وظهره الى اهل الدكان وقال وقد تمكن من جلسته ؟

ـ نعم ؟

ـ هل في القرآن واذا الصحف تطايرت وانتشرت ؟

ويقول حسين في وقار وثقة

ـ لا ؟؟ انما يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ؟ واذا الصحف نشرت ، واذا السماء ؟؟ ؟

ولا يكمل الآية واسما هي ركلة عنيفة في ظهره ترفعه الى اعلى قليلا ثم تهوي به على الارض منكفيا على وجهه عمامته نافرة عن رأسه وصوت يطن في اذنه ؟

ـ الم يبق الا العيال تسألهم في كلام الله ؟؟ وانت ماذا تعلم في كلام الله يا ابن الكلب ياصابع ـ قم ؟؟ قم خيبة الله عليك وعلى ابيك ؟

ويغرق الجالسان في الضحك لمنظر حسين وعمامته ، ويقفرحسين الى عمامته حيث هي وينفجر باكيا ويبتهر مكانا خاليا ويتفلت منه وقد خلا بكاؤه تسللا نفسه الحسرة ويروح يعدو وقد احست نفسه الطلم مرارا حانقا يزيده الرعب مرارة وحقا لايجدمتنفسا منه الا الدموع والنشيج ؟

وراح يعدو لايدري الى اين وانغلقت عليه المسالك فاصبح لايدري كيف يصل الى حجرته فيقف وينظر الى حاله وينظر الى خلفه حتى اذا استيقن انه غير متبوع راح يتحسس طريقه الى الحجرة حتى بلغها وحين دخلها وعاوده الامن وان لم تفارق نفسه المرارة ؟؟ احتضنته الغرفة ذلك اليوم ووجد فيها ماسا ووجد فيها انيسا ؟؟ هي هذه القطة التي عرفها أول ما عرفها في ذلك اليوم وكانت جاءته ليشكو اليها ماوقع له وليشكو هي اليه الجوع والتسكع ، كان هو وحيدا يفرغته وكانت هي وحيدة تجوعها والقى الاثنان وبدأت بينهما في ذلك اليوم صداقة ما تزال ممدودة الاواصر حتى يومه هذه لا ؟؟ لا ينسى حسين كيف كانت هذه الغرفة ماسا له من الفزع وكيف صارت

العطه اليسا له من الوحدة — وليس يساهما ايضا فيما وقع له بعد ذلك من ظلم ·

كان ذلك بعد اقامته في القـــاهره بضعة شهور وكان الازهر قد اتاح له بعض صداقات · وكان اقرب الاصدقاء اليه فتى من القرية المجاورة لقريته سبقه الى القاهرة بسنة واستطاع ان يجد عنده ما يحب من حديث عن اماكن واشخاص يعرفها كلاهما هذا الحديث الذى يذيب الوحشة وينير الحنين ويشعر الانـــان بدفء الحياة في ظلال بلدته وعلى وديانها وحقولها وتحته النخيلات هناك وعسل صـــفاف النهرات ذلك الحديث الذى لا يجده حسين في القاهرة الا حين يلم به عمه الحاج وال وقليلا مايفعل ثم هو لا يستطيع ان يفيض معـــه في الحديث اقاصة الصديق الى صديق · وانما هى امثلة يمنعها الاجلال ان تكثر ويعوقهـا الخجل ان تصل الى التفاصيل · اما حين يتحدث حسين الى صـــديقه حمـــدى فالذكريات المشـــتركة ، والاماكن التى يعرفها كلاهما والاشخاص الذين تربطهم بهما صلات الملعب والكتاب · فقد كان كتاب القريتين واحدا · وهكذا توطدت الصداقة بين حسين وحمدى ، وأصبح حمدى مرشدا لحسين في القاهرة · وصار حسين يبتعد عن جو الدراسة مطمئنا الى خبرة حمدى ومعرفته بالطرق فهو يزور احياء القاهرة معتمدا في السير عـــلى رجليه وفي معرفة الطريق على حمدى · حتى كان يوم زارا فيه حديقة الحيوانات واتما زيارتها وارادا العودة وكان التعب اخذ منهما اخذا وبيلا · فقد قضـــيا يومهما جميعه سائرين وقال حسين

ـ تركب الترام ؟

ـ تركب ؟ · لكن اسمع · اتريد ان تركب ام تريـــد ان احملك تتنزه مرة اخرى ·

ـ انا متعب ·

ـ انها نزهة مريحة

ـ كيف ·

ـ تركب سلم الترام بدلا من الترام نفسه فتكسب مكسبين الاول انا سنكون خارج الترام لنتفرج على الشـــوارع التى سنمر بها فرجة لاتستطيعها من داخـــل الترام اما المكسب الثانى فهو انـــا لن ندفع شيئا ·

ـ لا بأس ·

وكان حسين قد تعلم منذ حادثتـــه الاولى الا يخرج بعد الظهر بملابس الازهر فهو يلبس طاقية ومركوبا وجلبابا · وكان حمدى يرتدى مثل هذه الملابس ايضا · وبدا الاثنان القاهرة ولكن لم يكادا · فقد ركبا اول ماركبا تراما ذا مســـائق لا يحب هذه العادة من الغلمان فما كاد الاثنان يقفان على السلم حتى وجد حسين طاقيته تختطف عن راسه وقبل ان يبطر الى من اختطفها كانت طاقية حمدى تلحق بطاقيته وبطرا عادا الســـائق يضـــع الطاقيتين على القميص الذى يمســـك به ليتحكم في الترام وهو يقول

ـ حتى لا تركبا مجـــانا مرة اخرى يا اولاد الكلب ·

وراح حسين وحمدى يســـتعطفانه ولكن الرجل ظل صامتا وكانه فقد النطق حتى اذا بلغا انحناءة ســـديدة امال السائق الترام بعنف فاذا حسين وحمدى على الارض وقام كلاهما يجرى ولم يكن الترام في سرعته الكاملة فهما يعـــودان بحانبه يستعطفان السائق ان يرد اليهما الطاقيتين ولا يجيب ويحسبان ان بنيا

مرة اخرى الى السلم ان يضربهما الرجل الصارم . وراد الترام من سرعته وراد الانسان من سرعة عدوهمـا ، وبتعلت المركوب من رجل حسين ويستقر على شريط الترام وسر عليـه العجـلات الحديدية فاذا هو نصفين ويقف حسـين ويصطر حمدى لوقوف . كانت العصبية واحدة فصارت عصبيتان والطاقية مهما تكن من الوبر غالية الا انها على اية حال ارخص من المركوب . ويمسك حسـين بقايا المركوب بن يديه والترام يبتعد عنهما بالطاقيتين ويطر حسـين الى حمدى :

ـ ارايت شـورتك .. تتفرج ولا تدفع .

ويضع حسـين فردة المركوب تحت ابطه ويمسـك بالمركوب الآخر المرق ويقطع الطريق حافيا حريصا ان يميل الى كل محل احذية يلاقيه كبيرا كان او صغيرا يسال الواقف به سؤالين :

ـ ايمكن اصلاح هذا ؟

لا .

ـ ايمكن ان تبيع لى فردة واحدة ؟

وقد يجيب السؤول بلا ساخرا او يجيب بطرده هو وصاحبه فى صـلف وكبرياء .

ـ ويصل حسين الى غرفتـه ويقفل الباب ويرتمى على فراشـه ويبكى .. وتتب القطه الى جانبه فيمد اليهـا يده بفتر وعى ويمسح على ظهرها وتتحـدر الدموع من عينيه .

كانت الحيرة فى ذلك اليوم ملاذا له فى بؤسه وشقائه .. فهو اذن لايريد ان يتركها فقد الفها والفته .

والف ايضـا اهل هذا البيت . فان زوجة صاحب البيت وهى شابة فى ريق العمر كثيرا ماتلقى اليه نظرات فيهـا عطف وفيها انتظار لشىء لم يكن حسين يدرى ماذا تنتظر ولكنه كان يحس ان هناك شيئا تنتظره هذه الفتاة .. ولكن الايام فى مرورها البطىء جعلته يعرف ان هناك ما تنتظره امراة من رجـل وما ينتظره رجل من امراة . وحين بلغ اليوم الذى يعرف فيه هذا الشىء كان يقول كلما تذكر السنت مفيدة اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ـ ١٦ ـ

مر وقت طـويل على الحاج وال لم يزر الزقازيق فانتهز فرصة وجود بعض عملاء عنده يريد ان يبيعها فاخذ اهبته لزيارة البندر وسال الخاجة بنيـة ان كانت تريد شيئا فذكرت له ما تحتاج اليه ولم يكن ما تحتاج اليه كثيرا واخذ الحاج والى طريقه الى البندر راكبا عربته الحمطور التى كان قد طلب الى سائقهـا ان يعود اليه بعد ان يذهب بمحمد الى المدرسة .

وفى الزقازيق لم يجد تاجر الغـلال الذى تعود ان يعـامله فراح يشترى ما طلبته الخاجة بنيه حتى اذا انتهى من الشراء مال الى المقهى التى يجلس اليها كلما الم بالبندر وفجاة تذكر انه منـذ زمن بعيد لم يزر محمد فى المدرسـة ليعرف كيف يسير فى الدروس . فانتهز الفرصة وقام الى المدرسة ـ

وكانما كان الناظر ينتظره .

ـ كنت ساكتب اليك الآن .

ـ خيرا .

ـ المدرسون يشكون من محمد .

ـ لماذا ؟

ـ لا يريد ان يكتب فى الفصل ويهمل واجباته .

وحست الحاج والى قليلا .. احسكذا تنتهي آماله .. اهذا ماكان يصبو اليه، ابن طفلا ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها . وحين يريد ان ابرى طفلا ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها . وحين يريدان هم ثقيل كأنما هو امام طبيب يعلنه بنهاية الحياة .

ـ ماذا العمل ؟

ـ اتراك لينا معه .

ـ لا ادرى .. فانا لا أدخر له مطلبا .

ـ لعلك لو استعدت عليه بعض الشيء .

ـ بل اريد ان اشتد عليه كل الشدة .. انه ابنى الوحيد ياحضرة الناظر .

ـ اعرف .

ـ وليس لى امل فى الحياة الا ان يتعلم .

ـ اعرف .

ـ ماذا لو ضربته الآن امام اخوانه .

ـ عقاب شديد لا اريد ان تلجأ اليه الا عند الضرورة القصوى .

ـ اذن .

ـ عقابا أهون من هذا .

ـ حسن .. سيسير محمد فى دراسته على احسن وجه .. وساجيء اليك كل اسبوع لاتأكد من ذلك بنفسى .. واشكرك ياحضرة الناظر .

وخرج الحاج والى عائدا الى المقهى وانتظر حتى موعد خروج محمد . وركب العربة وانتظر مع المنتظرين . وخرج محمد ، وفوجيء بأبيه فى العربة .

ـ سلام عليكم يا أبا .

ـ اركب .

وركب محمد وسارت العربة ولم يبس الحاج والى بكلمة وظل محمد صامتا حائرا وقد داخل نفسه هلع لايدرى ماتاه فما هكذا عوده ابوه . كان يتحرق شوقا ان يدرى ما يفتعل بنفس ابيه ولكن ابى له هذا وهو لا يستطيع ان يفتح حديثا يغلق ابوه ابوابه . وصار الطريق الذى يقطعه محمد مرتين كل يوم دون ان يحس طوله طويلا طويلا لا ينتهى . فقد كان محمد يحادث السائق اثناء الركوب اما الآن فهو فى صمت مطبق لا يشغله الا صوت العجلات وخواطر الخيل والخوف الراعد الذى يملأ قلبه . وأحس الحاج والى بالحيرة التى يعانيها ابنه ولكن اين هى مما يشتعل قلبه من حزن والم .

ووقفت العربة امام البيت وقفز محمد يريد ان يبتعد عن نفس ابيه هذه العاصفة ولكن اباه عاجله .

ـ انتظر .

وكأنما كانت الكلمة حبلا يمسك بالطفل الصغير فهو يقف مكانه متسمرا ويهبط الحاج والى من العربة ولا يقول الا كلمة واحدة .

ـ تعال .

ويدخل محمد وراء ابيه ويجد ان الخاجة بسمه فى بهو البيت فيلقى عليها الحاج والى تحية سريعة ويدخل الى الحجرة وهو يقول لمحمد

ـ تعال .

وينظر محمد الى الخاجة وتنظر اليه وتقول .

ـ انت عملت حاجة ؟

وقبل ان يجيب محمد يعلو صوت الحاج والى مرة اخرى فى غضب :

ـ تعال .

ويدخل محمد الى الغرفة وتهم الخاجة ان تلحق به ولكن الحاج والى يردها فى شيء من اللين .

ـ انتظرى قليلا انت ياخاجة .

وترجع الخاجه الى مكانها من الصدر ويمسك الحاج باب الغرفة بالمفتاح .

ـ لماذا لا تكتب في الفصل ؟

ويصمت محمد .. لقد عرف الآن السر في غضب ابيه ولكن لات حين معرفه ويصرخ ابوه في وجهه .

ـ اطق .

ويرتعد محمد من هول الموقف ويعود ابوه يسأله :

ـ ولماذا تهمل في واجباتك ؟

ولم ينتظر الحاج والي رد ابنه كانت اسرع من اجابة محمد وانهال عمل الطفل ضربا والطفل باهت امام ابيه تدور عيناه في محجريهما ويحس شيئا ساخنا يسيل فخديه ثم تنفجر عيناه بالبكاء والاب يضرب حتى اصبح لايريد ان يقف ويصرخ .

ـ ماذا .. امجنون انت .. اليس لي الا ابن واحد ويريد ان يصبح عالما تافها .

ويضرب والعتي يحيط وجهه بذراعيه والاب يضرب لا يدري اين مواقع ضربه، ويضرب والطفل يبكي حتى صرخ الطفل أخيرا بصوت عال على صوت ابيه .

ـ كفي يا ابا كفى .

وكانما كانت كلمات الطفل القليلة يدا سلطت على قلب الحاج والي فاعتصرته اعتصارا .. كانت كلمات بسيطة قليلة ليس فيها اعتذار ولا طلب مغفرة ولكنها هزت كيانه كله حتى اوشكت الدموع تطفر من عينيه .. كفى يا ابا كفى .. لم يقل غيرها ، فماله قد زلزل زلزالا ، وماله قد كف يده وكانما قبضت عليها يد اخرى قدت من حديد وتنبه الى طرق زوجته على الباب فتحت لها ولم تسأله وانما احاطت الطفل بحنانها واخذته وخرجت من الغرفة .

وظل الحاج والي وحيدا .. الهذا كنا نأتي بهم .. لعذابهم وعذابنا .. ومرة اخرى عاد الضباب يغشى ناظريه الا انه في هذه المرة كان ضبابا اكثر كثافة من كل مرة .. واخرج الحاج والي مسبحته وراح يسبح .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله .

ـ ١٧ ـ

لم تكد بهية تستقر في بيت ابيها حتى سارعت الى التليفون تطلب صديقة الطفولة نعيمة فقد طالت بينهما الغيبة فهي اليها متشوقة تريد ان تسمع من اخبارها الكثير الذي تجمع عن هذه الفترة المتطاولة التي لم تزر فيها القاهرة . وكانما كانت نعيمة معها على موعد ، فان عامل التليفون لم يكد يدق لها جرس تليفونها حتى رفعت السماعة واتصل صوت الصديقتين .

وما كان التليفون الا وسيلة لتتم الزيارة فما ان انتهى الحديث حتى كانت نعيمة في بيت زكي بك الناصوري مصطحبة معها ابنتها ناهد . اما الام فسيدة في ريق العمر عدا السمن على جسمها فهو يترهل ولم تعد السنون على وجهها فهو ناضر ، ذات شعر اسود وثغر يحتفظ لنفسه من الحياة بابتسامة كثيرا ما تصبح ضحكة رنانة تصدر عن قلب يهفو الى السعادة تخلصت من كل تفكير أو هم، لها عينان يشقان طريقهما في الحياة بشعاع من الهناءة المترعة والسعادة الغامرة ، فيهما تطلع الى ما يجتلب اليها السرور والمتعة وفيهما قدرة ان يتجسما كل مامن شأنه ان يزيل الابتسامة عن الفم او السعادة عن القلب .

اما ابنتهـــا ، فطفلة لم ترد عن عمر آمال الا انها اكثر منها حركة وحياة ، ورثت عن امها الشعر الاسود والابتسامة وقد يرد امها عما تصير اليه بعض حمل أو حياء ، او قد يردها عمر ليس بالطفل اما الابنة فلاشيء يردها فهي تفعل ماتريد وقتما تريد حيثما تريد .

جلست الامان وسرعان ما بدا الحديث بطيئا واتيا اول الامر ولكن ماهي الا لحظات حتى تفجر الينبوع وتشـــابك الحديث كانه عاية من الكلمات المتدافعـــة حتى اصـــبحت كل منهما وهي لا تدري ان كانت صاحبتها تسمع أو لاتســـمع ، وانما كل مانصبان به ان يتحادثا .

ولم تستطع ماجد ان تصبر طـــويلا على حديث الامين فما اسرع ماتمت الصداقة بينها وبين آمال ، وما اسرع ما انسحبتا من الغرفة لتخلوا الى حديثهما هـــــا ايضا .

ـ ماذا تعملين في المدرسة ؟ .

تجيب آمال .

ـ انا لا اذهب الى المدرسة .

ـ ياه ، وماذا تعملين .

العب مع محمد امام بيتنا ـ هناك في البلد .. هل عندكم بلد مثلنا .

لا .. ولكني اذهب الى المدرسة ، وفي البيت نغني ونرقص .

ـ انا اتعلم في البيت ، وبعد الظهر العب الكرة .

ـ تاتي عندنا الست عطيـــات .. المغنية المعروفة .. مشهورة جدا اتعرفينها

لا .. انا اذهب الى الفيط ، واركب النورج .. هل عندكم نورج .

لا انا ارقص واغني مثل الست عطيات اترقصين .

ـ انا .. ابدا .

ـ يا بخسارة .. ساعلمك الرقص .

ـ وانا ساعلمك ركوب النورج ، واجعلك تضربين البقر الذي يجر النورج

ـ عندما ترقصين تصـــفق لك امك وابوك والزوار .

ـ عندنا اسماعيل ابو شنبان اخذني لاتفرج عليه وهو يدير الطنبـــور .. اتعرفين الطنبور .

ـ الست عطيات احسن واحدة تدق الصاجات .

ـ كان اسماعيل ابو شـــنبان يلف

ـ كان اسماعيل ابو شـــنبان يلف الطنبور وهو عازي الســـاقين فيخرج الطنبور ماء .

ـ الماء عندنا في الحنفية .

ـ وفي الصيف كنت اقف بجـــانب الغلة وهم يدرونها في الهواء عطير ثم يسقط الحب وحده والتبن وحده .

ـ نحن في الصيف نصعد الى سطح البيت ونغني الست عطيـــات ونرقص وكنت ارقص معها . ويقول ابي امي ارقص احسن منها ، ولكن امي تقول انها احسن من يمسك صاجات في مصر .

وقالت الست بهية لصديقتهـــا نعيمة .

ـ وماجد هل تذهب الى المدرسة ؟

ـ نعم .

ـ ما اسم مدرستها ؟

ـ والله لا ادري .. ابوها هـــو الذي ادخلها .

ـ الا تعرفين مدرسة ابنتك ؟

ـ وانا مالي .

ـ كيف ؟

ـ يا اختي بلا هم .. وماذا ستعمل بالعلم .. مصيرها تتزوج .

احسن لهـــا ان تتعلم كيف ترضي زوجها .

وتضحك بهية ضحكة مجلجلة وتقول

ـ وهل تعلمت هذا ؟

ـ ترقص عن كيفك .

وتقول بهية وبقية الضحكة مازالت عالقة على شفتيها في شكل ابتسامة

ـ ولكني أريد ان ادخل آمال المدرسة

ـ اسال لك عبد السميع عن مدرسة ناهد .

ـ واخبريني غدا بالتليفون .. قولي لي .. كيف حالك مع زوجك .. امازال مسيطرا من ضحكك ولهوك .

ـ الرجال اطفال .. الضحكة تجعلهم كالخراف يفعلون ماتشائين .. لا يؤخر لي طلبا .. طلبت منه ان يشتري جهاز ناهد من الآن فاشتري .

ـ وما الداعي ؟

ـ الا تعلمين انه كان متزوجا اخرى وله منها اولاد ، وانا ليس لي منه الا ناهد .. ان لم احصل على كل ما استطيع منه في حياته ضمنت بعده .

ـ انت لئيمة ولا يهين عليك .

ـ لا ياحبيبتي الضحك شيء والجد شيء ، جعلته يبيع ارضا لي وسجلها في المحكمة .. لا .. كل انسان يجب ان يبحث عن مصلحته .

ـ وهو يطيع دائما ؟

ـ ضحكة هنا ورقصة هناك وليلة انس يتم ما اريد ، وانت ماذا تفعلين ؟

ـ انا زوجي ليس له الا المال ولااعرف شيئا عن احواله الا انه رجل طيب ويفعل ما أريد .

ـ وهل يحب آمال ؟

ـ يعبدها .

ـ وهل تضحك عليه مثل ناهد ؟

ـ آمال .. ابدا .

ـ لا .. ناهد تعرف كيف تضحك على أبيها ، ان شاقته وهو زعلان مكشر تهمس في اذنه وتضع الحرام حول وسطها واطيل انا وترقص هي هادا تكشير ابيها ضحك وابتساط .. انتظري حتى اجعلها ترقص لك .

ـ انتظري انت حتى انادي زين العابدين وبابا وبيبا ليتفرجوا عليها .

ـ وانا كيف اقابلهم ؟

وسكتت بهية لحظة فقالت تعيسة .

ـ اطيل لها انا من هنا وهي ترقص في البهو .

وتجمعت العائلة وامرت الام ابنتها ان ترقص ولم تعترض الابنة او تدعي الخجل كانما هي راقصة محترفة تنتظر موعدها لتحيي الليلة ، وبدا الرقص ، وراحت ناهد تتمايل في اغونة محترفة وظهر العجب على وجه زين العابدين وقطب زكي بك بعض الشيء ، وارتسمت ضحكة طيبة على وجه اردهار ، وفرحة سادجة على وجه بهية ، وفجأة مالت ناهد براسها الى الخلف حتى كادت راسها ان تلامس الارض وفي غمرة الدهش صفق زين العابدين تصفيقا حارا فهو لم يتوقع ان يرى من الطفلة الصغيرة مايراه في الكباريه ودون وعي تقدمت آمال الى المسرح وراحت تهز نفسها مثلما تفعل صديقتها الحديثة وقال زكي بك دون وعي .

ـ بست .

ولكن البست لم تسمع ، وخجل زكي بك ان يصر على منعها خشية ان يمس هذا احساس نعيمة صديقة ابنته واندمجت آمال في الرقص مع ناهد وراح زين العابدين يصفق تصفيق الخبير محترف الكباريه وراحت امرأته وحماته تقلدانه في حرج ما لبث ان اصبح حماسة بينما تصاعد الدم الأحمر القاني الى وجه زكي بك فغمر وجهه وصعد الى رأسه حتى اصبحت القطعة الصلعاء التي تعادل الطربوش وتبرز للعيان من الخلف في لون الطربوش ذاته